

إسهام في دعم علم السيمياء الحديث وعلمي الصوتيات والاستغاف

الوحدة الأصلية بين اللغات مظهر لوحدة إنسانية عريقة نظرية طريفة تبرز أسس هذه الوحدة

عبد العزيز بن عبد الله

مدير المجلة ورئيس تحريرها

معنى اللفظ أي استجلاء خاصية الظواهر اللغوية من ناحية تطورها الزمني . وقد تشعب هذا العلم منذ نحو أربعين سنة باتساع شبكة اهتماماته التي أصبحت لا تقتصر على دراسة الفاظ معزولة أي منفصلة عن مؤثراتها بل صارت تبحث في مجموعات لغوية تصل بالنحو والاستقاق والتراكيب اللغوية بناء على المدركات والمفاهيم وامتبارا لظواهر اجتماعية وبذلك برزت نظرية جديدة في اللغة مرتبطة بالستروكتورالية structuralisme تعتبر اللسان كمجموعة مرصومة ترصيصا دقيقا تكون التعابير فيها مجرد تعاريف للنسب والصلات ومع ذلك فقد شعر اللغويون أو الخبراء في اللسانيات linguistes بأن هذه الدراسات سوف تظل مشلولة إذا تحركت في قفص مقل متجاهلة الروابط التي استوتقت في مختلف العصور بين الأمم والشعوب واللغات واللهجات تلك الروابط التي تضي على علم اللسانيات linguistique طابعا إنسانيا شاملا ربما اعتبر من أبرز مظاهر الوحدة الأصلية بين البشر وهكذا ظهر علم السيمياء

علم السيمياء sémantique علم خاص بدراسة معاني الكلمات وتغيراتها وهو علم «حديث» عرف بأورربا وخاصة بفرنسا عام 1883 وهو علم يكمل علم الصوتيات phonétique (أي العلم المختص بالأصوات والنطقيات) ، ويستهدف البحث عن جميع ظواهر اللغة بصفتها مجاليا للتعبير عن خوالج الفكر البشري وهو يستبطن جانبا خاصا من هذه الظواهر هو تطور معاني الكلمات وقد أدرج عنصر جديد في هذا العلم هو التزامن synchronisme أي تزامن الكلمة وظواهرها بمعنى وقوع هذه الظواهر اللغوية في عصر من عصور التاريخ في دراسة صنيع الألسن واللهجات ، وبذلك ظهرت جوانب في هذا العلم تبلورت في السيمياء التزامني sémantique synchronique ونسبته نحن سيمياء «المباني» (1) وهو يستجلي كل ما له صلة في عصر من العصور بالرابطة التعبيرية القائمة بين الدال والمدلول ، أما السيمياء المتعلقة بالتطور التزامني sémantique diachronique أو «سيمياء المعاني» فهو يهدف إلى دراسة التغيرات الطارئة على

(1) اخترنا هاتين الكلمتين وهما البنى والمعنى لوجودهما في الاصطلاحات النحوية العربية .

المصام *sémantique générale* الذي يرى في السيميائية المرتبطة بلغة ما من اللغات مجرد حالة خاصة ولم يمد علماء اللغة يرتكزون - حينئذ - في دراسة تطور التراكييب والاستقاقات على عوامل تختص بلغة ما في بلد ما بل اضافوا الى ذلك عناصر طريفة مختلفة تتمثل بالمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والمبادلات بين الامم وكذلك بالملابسات الشمية اي عمل الشعب الذي يستأصل المترادفات الحوشية فنظف عاطلة بين دقات المعاجم ويخلق ويولد وينحت ويصنى مبرهنا على ان اللغة كائن حي تنشأ ولانده لترمرع وتهرم تلقائيا مسابرة مقنضيات التطور والحاجيات المتجددة واذا كان في وسع المجامع والهيئات اللغوية توليد لفظ جديد للتعبير عما يستجد من المدركات فان هذا اللفظ انما يعيش غالباً في نطاق علمي محدود (اي نطاق المصنفات العلمية التي يتداولها الاختصاصيون) اما الحياة الحقيقية فهي تلك التي تنبثق من التجربة العلمية بواسطة الاجهزة الحيوية في الامة كالصحافة والاذاعة ووسائل التعميم والتبسيط المختلفة .

لذا فان علم السيميائية اصبح يهتم بتاريخ تطور اللفظ بالنسبة لتاريخ تطور شعب ما منذ حضارته البدائية اعتباراً لملاقاته مع شعوب اخرى وبذلك امتست كثير من الظواهر والتطورات الاجتماعية تصح ارتكازاً على هذه القامدة بينما كانت الدراسة المنفصلة لكلمة ما هي المتحركة في تكييف معطيات التاريخ والعلائق البشرية وهذا الجانب يهتم به علم هو *sémiologie*

يختص بدراسة « السمات » في المجتمع (2) .

والواقع ان القدماء من غربيين وهرب اهتموا بهذا الجانب من علوم اللسانيات منذ اكثر من الف سنة فقد افرد الفيلسوف افلاطون الموضوع بالتأليف في كتابه « Cratyle » (باريز 1931 -

مجموعة الجامعات الفرنسية) في شكل حوار بين استاذة سقراط والنين من رجال الفكر هما Hermogène وكراتيل Cratyle وقد اكد الفيلسوف « ان للاشياء جوهرها ثابتاً وقاراً وان الكلمة اداة للتعبير عن الحقيقة وبذلك يكون بين الكلمة وحقيقتها الدالسة عليها (اي بين الدال والمدلول والمبنى والمعنى او الاسم والمسمى) تلاؤم طبيعي *justesse naturelle* فلماذا كان اللفظ يعبر عن جوهر الاشياء وكانت الكلمة تبرز اول ما تبرز في وسط بدائي فطري وهذا هو ما حدا سقراط الى القول بان المجتمع البدائي الذي يصفه بالوحشي هو المنبع الاصيل للكلمة ويقول Louis Méridier (الاستاذ في كلية الآداب بجامعة باريز) لدى تعليقه على هذه الظاهرة (ص 19) « ان العلم الحديث يفسر ذلك بالقرابة القائمة بين اليونانية والسنسكريتية او اي لغة اخرى هندية اوردية ، وقد اشار افلاطون الى ما تماز به الحروف من خواص تمبيرية اي علاقة طبيعية مع المدلول والكيونة ولذلك كانت هذه الحروف ادوات للتعبير من ظواهر شتى كالحركة والخفة والطموح والاضطراب والتوقف والانزلاق والاستبطان والمظمة والطول والكورية وغير ذلك بحيث نجد كثيراً من الشبه بين اللغات انطلاقاً من هذه الظاهرة الانسانية الاصلية .

وقديماً ربط علماء اللغة العرب بين هذه المعطيات وبين ما سموه بعلم السيميائية اي علم اسرار الحروف (3) وقد تصدقت في ذلك دراسات الحائمي والبوني وابن خلدون كما افرد روني كينون (في كتابه المذكور) فصلاً خاصاً لهذا العلم ابرز فيه « الجوهر والنسب العددية التي تعبر عنها الكلمات » ولاحظ ان لانتقال كلمات من اقاليم الى اخرى بحكم التبادل بين البشر علاقة وطيدة مع قيام مراكز اشعاعية في مختلف هذه الاقاليم .

(2) سنحلل بحول الله في عدد مقبل مقومات وتطورات هذا العلم الجديد

(3) يرى René Guénon في كتابه (رموز أساسية للعلم المقدس)

« Symboles fondamentaux de la Science sacrée » (Edition Gallimard, 1962)

ان كلمة سيميائية لا يظهر انها عربية صرف وانها مشتقة من كلمة *Semeta* اليونانية بمعنى العلامة وهو واهم في ذلك لان كلمة سيميائية العربية مشتقة من السمة (سيماهم في وجوههم) بمعنى العلامة والاية اي *signe* ايضاً .

وانحدت وجهاتها ولفاتها فبرزت منذ ذلك كثير من اوجه التشابه بين لفات البشر من الآريين والساميين والهاميين ولا شك ان الانسان الاول قد انطلق في نطقه البدائي من ثنائيات صوتية ردد فيها الاصوات الطبيعية في حروف اصبحت مع الزمن جدورا مشتركة بين المجموعات البشرية المذكورة وبذلك يكون منطلق كل لفظ من حرفين اساسيين ترتيبين او معكوسين انضافت اليهما في اواخر المطاف سوابق ولواحق او صدور وكواسع (préfixes et suffixes) تنسم بطابع اقليمي يخضع لمؤثرات جهورية خاصة وهذا هو سر الاختلاف المتزايد مع الزمن بين لهجات كانت موحدة الى عهد قريب ثم تنامت الشقة بينها حتى في الاقليم الواحد كما وقع بالنسبة للغة العربية ضمن مختلف القبائل منذ العهد الجاهلي

ونظرة على لائحة الابدال والمعاقبة بين الحروف العربية (المثبتة اواخر البحث) تبرز لنا معيارا دقيقا لهذا التطور بالنسبة للغة العربية وهو معيار قد تضبط مقاييسه الفطرية حتى على لغات ولهجات اخرى في اقاليم غير عربية .

وهكذا تولدت في خاطرنا - منذ ان اتصل تفكيرنا بهذه المعطيات المشتركة - نظرية كانت تتضح وتتلور كلما امعنا في تتبع الامثلة العديدة التي لم تكن نختارها نحن بل كانت تترى في سيل هارم ملك علينا مشارنا في فترة وجيرة قضيناها في الاستعراض والتعميص وقد اغتمت فرصة وجودي بين مراكز الاستشراق وخبراء اللسانيات خلال شهر شتنبر المنصرم في بولونيا والاتحاد السوفياتي فعرضت الفكرة - خلال احاديثي - على ثلة من الاختصاصيين في اللهجات السامية ، وقد حاولت وضع مشروع ضوابط اساسية لهذه الفكرة ارجع اليها كقاعدة في البحث وكنت اترك لزملائي من المستشرقين الذين امكنني التحدث اليهم في الموضوع - حق انتقاء اللفظ الروسي او الفرنسي او الانجليزي الموضوع على المحك لاختبار مدى انطباق القاعدة عليه وكأنت النتيجة في معظم الحالات ايجابية الى حد بعيد كما يتضح من الامثلة المعروضة هنا في غير ترتيب .

وقد كان للنحاة العرب منذ صدر الاسلام نظريات تتصل بعلم السيمياء الحديث من وجوه مختلفة حيث حاولوا ابراز خواص كل لغة من حيث «مبانيها» ومن حيث «معانيها» .

ونشير هنا الى ما حققه احد كبار الاختصاصيين في اللهجات وهو كوني A. Cuny (4) من وجود تشابه عميق بين اللغات الهندية الاوربية اي الاربعة من جهة واللغات الهامية (كالمصرية القديمة) والسامية (كالعربية والعبرية) من جهة اخرى ، قد لاحظ ان وحدة استعمال صيغة المثني مثلا في هذه اللغات دليل قاطع على القرابة الاصلية بين هذه المجموعات اللغوية ثم ذهب ابعد من ذلك فابرز طابع التجانس والتشابه بين التطور الذي حققته اللغسة اليونانية انطلاقا من اللغة الهندية الاوربية وبين تطور اللغة السامية ابتداء من الثنائية الهامية والسامية ولم يخف الاستاذ كوني (ص 33) اصالة التراث الموحد المربق في عهد ما قبل التاريخ بين العربية الفصحى ولغة شعب اركاديا Arcadie اليونانسي (وهو شعب من الرعاة الذين جمعتهم وهرب الجاهلية روح البداوة الخلافة) ثم اكد (ص 48) انه نظرا للمظاهر العامة في مسيرة التطور يمكن القول بان تراث اللغة الهندية الاوربية هو - نسبيا على الاقل - من مخلفات المهود السحيقة اي انه منبثق من ذلك التراث الاصيل الذي تركته المجموعات السامية والهامية ، ثم ختم سلسلة دراساته الدقيقة (ص 64) مؤكدا ان مجالي التشابه والتوافق الملحوظة بين اللهجات الهندية - الاوربية والسامية والهامية حجة حتمية على وجود وحدة لغوية اصلية .

* * *

ويرى كثير من علماء اللسانيات ان ابناء نوح حاولوا منذ ازيد من خمسة آلاف من السنين اقامة برج سامق في بابل Babel للوصول الى السماء ولكن الله عاقب هذا الطموح الاخرق بخلق بلبلة في لفات كانت قبل ذلك موحدة ومهما تكن قيمة هذه « الاسطورة » فلا يبعد ان تكون البشرية بعد الطوفان قد انحسرت ابعادها وانحصرت لغويها

Auteur de la « Catégorie du duel dans les langues indo-européennes et chamito-sémitiques ». (4)

نماذج لوحددة اللغات

(القلب يكون من السهل الى الاسهل)

ونورد مثالين آخرين لابراز اهمية التصرف على المترادفات :

الكلمة الاولى هي نور يقابلها في الفرنسية كلمتان هما lumière و lueur فاذا انقلبت نور (طبقا لمبدأ التماكب بين اللام والنون مثل زجل وزجن واصيلال واصيلان وحالك وحالك) .

اصبح : نور = لور = lueur
(وهو يتفق والكلمة اللاتينية الشمسية lucere)

وبهذه المناسبة لاحظ علينا احد المستشرقين الروس ان القاعدة لا تنطبق هنا على المقابل الروسي وهو Svet (تنطق Sviet مع تخفيف حرف V) فعقبنا على ذلك بان لكلمة نور مرادفا هو ضياء لقول الله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا » (وان كانا يختلفان من حيث القوة) ولهذا صار

ضياء = ضياء = صيات Siat = Sviet
(صى = sie)

(وقد عاتب العرب الضاد والصاد في مثل مض الرمانة ومصها ومنافى ومنافى ودحوض المدبوح برجله ودحصه اذا حركه وتضاف الناس وتضافوا الخ) وما زالت كثير من الاقطار الاسلامية في آسيا الوسطى تسمى الحوض حوصا)

اما الكلمة الثانية فهي زهر ومرادفها هو نور (بفتح النون) الذي تقابله في الفرنسية كلمة fleur (التي كان ينطق بها flor او flour في القرن الثاني عشر الميلادي) وفي الانجليزية flower وفي الاسبانية flor وفي اللاتينية flos (التي اعطت floris)

ولناخذ الآن كلمة حبر فانها مؤلفة من العين والباء والراء فاذا اعتبرنا ان الباء تماكب اللام في العربية (مثل قطع وقطل وصقل به الارض وصقما اي ضربها) .

فنحن نسرد هذه النماذج كما اقترحت علينا ونستثنى منها الدخيل الاجنبي الذي شهر في العربية او العكس (وان كان لنا نظر في ذلك قد سبقنا اليه صديقنا العلامة عبد الحق فاضل في سلسلة ابحاثه القيمة حول التايل والترسيس (5) .

وتؤكد هنا انه يجب الاتكاز في نظرتنا هذه على دواسة الحرفين الجذريين في الكلمات المتشابهة واعتبار شواهد اساسية سنشير اليها عند الاستعراض غير ان الجذر يكون في الغالب ثنائيا اي يحتوي على حرفين متشابهين . وان كان التماثل قد يصل الى ثلاثة احرف ، وقد ينزل احيانا الى حرف واحد .

نظف مثلا تقابلها في الفرنسية nettoyer (واصلها net وقد وضعت في القرن الثاني عشر الميلادي واتبست منها كلمة net اي واضح اوصاف) ، كما تقابلها في الروسية كلمة natirat

والجذر الثنائي في هذه الكلمات هو نظ (بامتناب ان الطاء في العربية تماكب مع الظاء كقول العرب شطي البيت وشطى اذا انتفخ فارتمت قوائمه) .

نظ = نظ = nat = net

اما التشابه مع الانجليزية فانه يتجلى في مرادف اآخر لكلمة نظف وهو صفى التي يقابلها في الانجليزي :

صفى = nettoyer = to swab
صف = swa

ولهذا وجب قبل التنظير والمقارنة استقصاء المترادفات في كل لغة .

ونضرب لهذا مثلا اآخر بمترادفين عربيين هما زفن ورقص حيث نقابل كلمة زفن بكلمة danser في الفرنسية و tanzawat في الروسية و danzar في الاسبانية و to dance في الانجليزية على اساس : زن - فن = ns

(5) راجع مجلة «اللسان العربي» (وخاصة منها العددين الثالث والخامس)

ولنشر باقتضاب الى بقية الامثلة المعروضة
علينا فنقول :

— مشى : يقابلها marcher بالفرنسية
marchirovat بالروسية و marchar بالاسبانية و
to march بالانجليزية .

اما المشي الخاص للتعقب كالمطاردة مثلا :
فقد اعطى في الانجليزية to tread طارد
سال يقابلها في الفرنسية couler على
اساس ان ك = C = s في الفرنسية (مثل
civil و celeste) اعتبارا لكون السين
تعاقب الصاد في العربية والصاد تستبدل
بالكاف مثل وصب ووكب على الامر اذا واظب
عليه ومك المعظم ومعه بمعنى) . كما ان قبيلة
ربيعة تجعل غالبا الكاف المؤنث شيئا كما قال
الشاعر يصف الغزاة :

فميناش ميناهما وجيدش جيدها
سوى ان عظم الساق منش دقيق
(يريد ميناك وجيدك)

— ملجا ومرادفها معزل وهما يقابلان كلمة asile
(بالفرنسية) و asilo (الاسبانية) و
asilus (بالانجليزية)

— مضغ يقابلها mâcher ومنها تفرعت مصطكا
mâcher, mastic (ومعلوم ان
الصاد تعاقب الضاد نحو مص ومض وحصب
وحضب في معنى حطب)

— سار يسير سر circular (ف) و
circoulirovat (ر) و circular
(أ) و to circulate (انج) .

— عشاء pitscha بالروسية (عشاء = اشاء = itcha)
شءاء = eda (بالروسية ايضا)

اما صيغ الافعال في اللغات فقد لاحظنا مثلا ان
ماء الخطاب ونون المتكلمين وياه الفائب او
او الفالبيين متشابهة كقولك : تفعل tu fais
ونفعل nous faisons ويفعل (il fait ou ils font)
(ب = i = il في الفرنسية نحو briller
الخ)

كما ان كلمات الايجاب والنفي موحدة في كثير
من اللغات :

اي = oui = yes = ya = si
(باضافة s في الاسبانية)

اصبحت الحروف : لبر = برل = pri
ومنها parler في الفرنسية و (habra = habla)
في الاسبانية parabola في اللاتينية
و gavorit (v = b) في الروسية
والكلمة تختصر (abarit) في حين تساوت الكلمة
الانجليزية to talk مع مقابل عربي واخر هو
نطق (نطق = طلق = طلق talk)

ومنها لسان طلق وطلاقة اللسان بمعنى فصاحة
القول

وترمز الثنائية الجدلية في حرفتي طس
(مثلها طش نظرا لتعاقب بين السين والشين في
مثل اسدف واشدف الليل اذا اظلم) الى السقوط
واحيانا الى السقوط مع تشتت وتفروق (طش
تقابلها بالفرنسية chute وبالانجليزية
shut down وتعبر لفظة طش في العامية المغربية
عن هذا المعنى واصلها من طشت السماء اذا امطرت
ومن الطشاش وهو الرشاش) ومن ذلك شتاء اي
مطر هائل (س = ت في مثل قول العرب الشت
والناس والتكين والتكين) يقابلها في الروسية
tetch وفي الاسبانية salto (التضمنة ل :
sat) . ولا نطيل في هذا السياق فان القلم اذا
سار على هذه الوتيرة عسر عليه حصر المادة لاسيما
اذا قارنا نفس الكلمات مع مرادفاتها في لغات
مختلفة . وقد ايد احد المستشرقين الروس هذه
الامثلة ملاحظا ان هذا التساوق بين هذين الحرفين
الجدريين وبين فكرة السقوط والتشتت قد يوحى الى
خبراء اللسنيات بفكرة اخرى هي امكانيات وجود
اصول جدلية موحدة غير مدروسة لحد الآن في
كثير من اللغات والتي تنجلي في سعة مدى تفاريع
الجدل الثنائي في مثل : « قب » فانه يرمز الى كل
ما يعتقد او يصنع مقوسا او محدودبا مثل :

قبه = coupole (بالفرنسية) cupula
(الاسبانية) cupola (الانجليزية)

قبو = alcove (بالفرنسية والانجليزية)
alcove (روسية) alcoba بالاسبانية

قبعة = chapeau (ف) chopka (ر) copc
او capelo (أ)

قب = capuchon = cap (انج) capuchon

او capucho (أ) الخ